أول السطر

لا أعرف إلى الآن لماذا اخترت أن أبحث عن هذه القصص وأن أذهب إلى ما هو أبعد من هذا فأكتبها تحت عنوان «دقات على باب مصر»؟

فمصر ككيان وكما يحلو للبعض أن يراه يبدو ثابتا ومرشحا للاستمرار، بدليل كل هذه النجاحات التى حققتها مصر برغم العديد من العقبات التى اعترضت طريقها على مر العصور.

فقد تجثم ظلمة حالكة وتهب رياح الاختبارات العاتية على مصر ويظن الجميع أنه لا فكاك من هذه المصاعب. ثم تشرق الشمس وتموت كل الغيوم فى السماء.

فمن يعش فى الحاضر يتصور وبنظرة محدودة أن المصريين الذين عاشوا بالأمس على هذه الأرض والذين شيدوا حضارة بل مجموعة من الحضارات على مر العصور ليسوا بالطبع هم هؤلاء الذين يمشون فى الشارع ويعانون من غلبة المشكلات اليومية التى تتعلق بالحياة ولقمة العيش.

وقد يأنس من يفكر بهذا الأسلوب إلى اعتقاد خاص بأن هؤلاء المصريين الذين عاشوا فى الماضى إنما ذهبوا مع أيامهم وأنه لا رجعة لمثل هذه الأيام على مر العصور.

وإن الذين صنعوا سبل التمدن المصرى فى القرون القريبة الماضية إنما هم أشخاص جاءوا إلى بر مصر واستقروا بها ولولاهم لما عرف المصريون التمدن.

اعتقاد غريب ..وهو من وجهة نظرى ليس سوى أقوال تصدر عمّن لا يؤمنون بقدرتهم على تسيير الحياة ولا يملكون بالقطع طموحات واضحة ويرتاح إلى الركون إلى فكرة هى أبعد ما تكون عن الحقيقة.

فإذا قمنا بما يشبه المساءلة الحضارية لوجدنا أن تاريخ مصر الطويل وعلاقتها بالغريب وأبناء البلد هو ما جعل منها لوحة من الموازييك قلما تتشكل فى مكان أخر.

ولهذا لا يمكن أن نقول إن المصريين هم من ولدوا فى بر مصر المحروسة فقط ولكن المصريين الحقيقيين هم من ينتمون بحكم التركيبة الحضارية لهذا البلد وهذه الشمس وهذا التاريخ.

وهم أيضا من يذوبون عشقا فى هذه الأرض ويبدأون تاريخهم الشخصى على أبواب المحروسة مصر ويعيشون الحياة بنمط جديد وعقيدة وسطية.

د.هالة أحمد زكى

أول الكلام

عندما كتب إدوارد وليام لين عن العادات والتقاليد المصرية مؤرخا الحياة فى مصر فى الفترة ما بين عامى ١٨٣٣م، ١٨٣٥م كانت هناك العديد من الجاليات التى تسكن مصر منها عشرة آلاف عثمانى وتركى وخمسة آلاف من الشوام وخمسة آلاف من اليونانيين وألفان من الأرمن غير سبعين ألفا من العرب والزنوج والمماليك والجوارى والفرنجة.(١)

وهو ما يعنى باختصار أن مصر فى زمن بدايات الأسرة العلوية كانت تضم الكثير من الجنسيات وأن هؤلاء جميعا عاشوا على أرض مصر ينعمون بتفاصيل الحياة المصرية دون أى تفرقة.

فالإحصاء يعلن بصراحة وكما هو واضح أن هؤلاء عاشوا بالفعل فى بر مصر إلا إنه فى النهاية مجرد إحصاء يتحدث بلغة الأرقام، وهى لغة قد يغيب عنها أن تعرفنا ظروف هذا اللقاء على الأراضى المصرية أو أن تحكى عن الزمن الذى جاء فيه هؤلاء وأن تعلن لنا بصراحة عما إذا كانوا بالفعل قد وجدوا فى مصر مرامهم.

وفى الوقت نفسه قد يغيب عنه وعنا أن نجد إجابة وافية بسؤال آخر: لماذا مصر بالذات؟ وأين ذهب أبناء العثمانيين والأتراك والشوام والأرمن واليونانيين والزنوج بعد هذا العمر؟!.

فهل دخل هـؤلاء فى زمن معين ولحاجة معينة وتركوا بلادنا بعد انتهاء مهمتهم؟ أم إنهم مازالوا يشـكلون جاليات تعيش بشكل مستقل ويتعاملون مع المصريين على أنهم مجرد جيران لهم؟

وإذا لم تكن الإجابة بنعم.. فالسؤال سيكون كالآتى: هل ذابت هذه الجاليات فـى الأراضى المصرية وتاهت ملامحهم المميزة وسـط الملامح المصريـة وأصبحوا بالفعل مصريين بعد اسـتقرار جيـل أو جيلين على أرض البلاد؟

مجرد أسـئلة تحتاج منا إلى إجابات واضحة. وإن كانت أسئلة وكما أعتقد بلا إجابات ظاهرة. ولهذا سأحاول أن أقرأ معكم بعض الحواديت المصريـة التـى تحكى لنا عن أنـاس جاءوا إلى أرض مصـر داخلين من باب من يقصدها واستقبلهم المصريون ليعيشوا بين ظهرانيهم وليتبادلوا معهم تحية الصباح والمسـاء ورغيف الخبز ومشـكلات الحياة اليومية وقصـص إنجاب ونجاح الأبناء والأحفـاد. فالمصريون هم من فتحوا لهم الأبواب.. والمصريون أيضا هم من رضوا بوجودهم.

فالواقـع إن مصر لم تغلق الباب أمام الأغراب الذين لم يأتوا محتلين بل راغبين فى العيش على أرضها ولم تفرض عليهم قانونا يكسر القلم فى أيديهـم أو تفرض عليهم فنونـا أو عادات بعينها بل على العكس فتحت لهم أبوابها وتركتهم يعملون ويتحركون ويعيشون ولم تفرق بينهم وبين غيرهم من المصريين. فكانت لهم رؤيتهم التى أثرت الفنون المصرية. وقد فعلوا كل هذه ليقول المصريون لهم فى النهاية.. خطوة عزيزة.

أبناء قولة يحكمون

مرة أخرى... نقرأ إحصائية من كتاب «الأتراك فى مصر» صدرت فى السنوات الأولى من حكم محمد على باشا فى فترة العشرينيات والثلاثينيات من القرن التاسع عشر تحدد عدد سكان مصر بمليونين وستمائة مصرى مسلم ومائة وخمسين ألف مصرى مسيحى واثنى عشر ألف تركى عثمانى وخمسة آلاف مملوك.(٢)

ويعتقد كثيرون من أصحاب الأصول التركية أن قانون المواطنة الأول الذى صدر عام ١٨٩٩م وجرى تعديله بعدها بعام قد أقر مصريتهم حيث إن المادة الأولى منه جعلتهم يتمتعون بحق المواطنة التى يتمتع بها كل من توطن القطر المصرى قبل أول يناير ١٨٤٨م وحافظ على محل إقامته وكذلك الأبناء وأفراد الرعايا العثمانية المولودون فى مصر والمتوطنون فى مصر منذ أكثر من خمسة عشر عاما.

أما الأتراك أنفسهم فلا يمكن رصد تاريخ معين لوجودهم فى البلاد وإن كانوا يعترفون بأن أول من جاء إلى مصر من أصول تركية وصاحب مكانة متميزة هو أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية، حتى إذا جاء المماليك أصبح لوجود الثقافة التركية بصمة كبيرة من خلال المماليك البحرية واستمر الحال فى ظل الدولة العثمانية التى شهدت أكبر تدفق للأتراك فى العهد العثمانى.

ومع تولى محمد على باشا حكم مصر والذى كان فى الأصل ضابطا فى الجيش العثمانى برتبة سرجشـمة توطنـت الثقافة التركية، حيث إن التحديث الذى أقره فـى بداية حكمه – كما جاء فى كتاب الاتراك فى مصر – قد تم طبقا للنموذج العثمانى.

وأما عن الحياة العامة فقد كان للأتراك تأثيرهم فى الجيش والطبقة الأرسـتقراطية والطعام والموسيقى. ولهذا اختارالأتراك العيش فى المدن الكبرى كالقاهرة والإسكندرية وبعض المدن المصرية وإن كانوا فى الحالة الأخيرة لا يتعدى عددهم ما بين الاثنا عشـر والعشرين شخصا بينما لم يسكن القرى فعليا سوى شخصين أو ثلاثة.

وفى النهاية يمكن أن نقول إن أرفع المناصب فى الجيش قد شـغلها الأتراك حيث سن محمد على باشا هذا السنة. فتشكلت الإدارة الحديثة مبدئيا من أفراد عائلتـه وأهل بلدته «قولة» ومنهم ابنه إبراهيم القائد الحربى صاحب الفتوحات الكبرى فى الدولة المصرية الذى لا يشـق له غبار وحفيده عباس ثم إبراهيم وأحمد نجلا أخته ومؤسسا أسرة يكن.

ولهـذا لا يمكن حصر الوجـود التركى فى مجموعة من السـنوات أو انواقـف. فمنذ تولى أحمد بن طولون أمر مصر وحتى نهاية الأسـرة العلوية توجد مساحة كبيرة من الزمن وتطورات لا يمكن وضعها تحت لائحة قانون واحد.

فهـؤلاء الأتراك لا ينتمون فقط إلى مراحل تاريخية وحقب مختلفة ولكنهم أيضا ينتمون إلى فئات متعددة من البيت التركى. فهناك الأتراك

السلاجقة والقبشاق والكرج والأرناؤوط الذين عاشوا فى مصر فى زمن المماليك. وهناك الألبان وطوائف أخرى من الترك استقروا فى مصر فى مرحلة لاحقة نسبيا.

إلا إنه تظل لمحمد على مكانة خاصة فهو ليس مجرد شخصية شهيرة تنتمى إلى هذه الطائفة أو الجالية فى مصر ولكنه كان فى أبسط تقدير مشروع دولة.

فلكى نفهم ببساطة ما فعله محمد على يمكن أن نقرأ ما كتبه جى فارجيت فى كتابه «محمد على.. مؤسس مصر الحديثة» حيث أقام محمد على المدارس التى تخدم أهداف التنمية الاقتصادية والعسكرية مثل مدرسة المهندسخانة والطب والولادة والصيدلة والفنون والصنايع والزراعة والبيطرة.

وكان يلتحق بهذه المدارس تلاميذ الأزهر والكتاتيب فى البداية من الذين حصلوا على قسط معقول من التعليم ثم أصبحت المدارس عامة ومدنية الطابع. ولما تعددت المدارس واتسع نطاقها أنشأ محمد على دارا سميت ديوان المدارس كأول وزارة للتعليم.

وفى كتاب وصف مصر قدر عدد سكان مصر بـ٢,٦ مليون نسمة عام ١٨٠٠م ولكن أندريه ريمون ذكر أن العدد الحقيقى تجاوز أربع ملايين نسمة ووصل إلى ٤,٧ مليون نسمة فى نهاية عهد محمد على أى بنسبة زيادة قدرها ٤ بالألف كل عام.

ويرجع ذلك إلى زيادة عدد الوفيات بسبب الحروب والأوبئة. فقد ظهرت الكوليرا عام ١٨٣١م واستمرت تعاود الظهور على فترات حتى منتصف القرن العشرين فى أعوام ١٨٤٧م، ١٨٤٨م، ١٨٦٥م، ١٨٨٣م و١٨٩٦م، ١٩٠٣م، ١٩٤٧م.

وحصد وباء الكوليرا الذى ظهر عام ١٨٣١م - ١٨٠ ألف شخص. أما وباء الطاعون الذى ظهر عام ١٨٣٥م فقد تسبب فى وفاة ٥٠٠ ألف نسمة

ومع ذلك فكانت نسبة المواليد فى عهد محمد على مرتفعة. أما الوفيات فى الأطفال فكانت مرتفعة أيضا.(٣)

المهم أن محمد على وعائلته يمكن أن يحكوا عن طبيعة علاقة الأتراك بالمصريين. وإن كنا لا يمكننا رصد كل دقيقة وثانية حدثت فى بر مصر فى ذلك الزمن. فكل ما نستطيعه هو التقاط بعض القصص والحكايات التى تناقلها المصريون والتى كان بعضها فى صف هؤلاء الوافدين وبعضها الآخر ضد هذا التواجد الذى اعتبر فى عرف البعض شكلا من أشكال الاستعمار.

❑❑❑

من الصاغة وخان الخليلى

يبدو أن مجئ الفاطميين إلى مصر مثل أفضل وقت للوجود الأرمنى على الأراضى المصرية. فخلافا لما حدث لآخرين فى ظل هذا الحكم أعطى الفاطميون الأرمن وضعا متميزا حتى إنه اعتبر زمنهم الذهبى ويكفى ما كان من أمر الوزير الشهير بدر الدين الجمالى من تول للوزارة والقيام بالكثير من الإصلاحات وتشييد العديد من العمائر الإسلامية ومنها أسوار القاهرة.

وإن كان الجمالى لم يكن الحالة الفريدة فى العصر الفاطمى فهناك من وصل إلى رجال السلطة من الأرمن. إلا أن أكبر ظهورلهم قد حدث فى القرن السابع عشر عندما جاءوا إلى مصر كحرفيين فى الصاغة بخان الخليلى وكتجار للأسلحة واستقروا فى القاهرة والإسكندرية ورشيد ودمياط.

وبالاقتراب من المشهد نجد أنهم مع الأيام أثبتوا قدرتهم على التفاوض الدبلوماسى فى العصر العثمانى وإن بدأ هذا التعامل حذرا، إلا أن عصر محمد على قد شهد هجرات أرمنية إلى مصر وخاصة بعد خروج الحملة الفرنسية.

ويقال إن محمد على باشا قد عمل فى صباه بتجارة تاجر أرمنى كان يعامله معاملة الأب لابنه.

ولهذا مع تولى محمد على الحكم أصبح باستطاعة أسماء كبوغوص بك يوسفيان الذى أصبح ناظرا للتجارة والأمور الإفرنجية الحق فى الظهور.

وإن كان هذا الوضع لم يستمر كثيرا فى ولاية عباس الأول – الذى لم يتجاوب معهم كثيرا – والذى جاء خلفه سعيد باشا بانفراجة جديدة لهم. وبرغم هذا التذبذب بين القبول والرفض توافد هجرات قوية منذ أكثر من مائة وثلاثين عاما نتيجة للاضطرابات السياسية فى أرمينيا.

ويذكر الباحث محمد رفعت فى كتابه «الأرمن فى مصر» إن تعداد الأرمن الكاثوليك قد وصل عام ١٨٨٥م إلى ٢٢٨ أسرة منهم ٥٩ أسرة فى القاهرة و٢٦ أسرة فى الإسكندرية و٢٣ أسرة فى الأقاليم.

وقد بلغ عدد الأرمن الكاثوليك فى القاهرة عام ١٨٩٦م إلى ٢٣٢ أسرة يعيشون فى حى شبرا والعباسية والفجالة ودرب الجنينة وبين الصورين وباب الشعرية ودرب المصطفى وشارع محمد على والموسكى والأزبكية وبولاق.(٤)

وقد نجحوا فى الدخول إلى الحياة المدنية فى القاهرة بالخدمات التى عرفتها الطبقة المتوسطة كما أنهم أيضا لم يكونوا ليتركوا الريف المصرى دون مشاركتهم وإن كانت أقل بكثير من مشاركاتهم القاهرية.

باختصار نجح الأرمن أن يكونوا أداة من أدوات تحديث المجتمعات القاهريـــة. فالأرمن بالتأكيد كانوا مقدمة لنقلة الحداثة التى شـــهدتها مصر المحروسة قبل وبعد حكم إسماعيل باشا.

❑❑❑

أول وحدة عربية

صعب جدا أن نرصد نقطة البداية لوجود الشوام فى مصر. والشوام كلمة كانت تطلق غالبا على السوريين واللبنانيين الذين عاشوا فى بر مصر.

إلا أنه لا يمكن وبأى حال النظر إلى علاقة الشوام فى مصر دون التوقف عند مرحلتين تاريخيتين مهمتين أولاهما الحكم المصرى للشام والذى امتد لعشر سنوات بدءا من عام ١٨٣١م فى زمن محمد على وثانيهما إعلان الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨م.

فكما تقول د.لطيفة سالم فى كتابها المتميز «الحكم المصرى فى الشام»: إنه منذ عام ١٨١٠م ومحمد على باشا يصوب نظره إلى تلك المنطقة وكان ابنه القائد إبراهيم باشا يرغب فى احتواء الجيش العربى فى إطار موحد شامل فكما قال ابراهيم نفسه:

أنا لست تركيا فإنى جئت مصر ومنذ ذلك الحين مصرتنى شمسها وغيرت من دمى وجعلته دما عربيا حتى إنه أقدم واتخذ لنفسه لقب «سر عسكر بلاد العرب» ولم يوافقه عليه والده محمد على باشا.

ويعد إبراهيم باشا واحدا من أهم ركائز الأسرة العلوية، فلولا قدراته العسكرية المتميزة وكفاءته فى المعارك الحربية التى ثبت فيها وحقق الكثير لأبيه لما أستطاع محمد على أن يحقق أحلامه التى تفوق الخيال.(٥)

وأما المرحلة الثانية فهى الوحدة ما بين مصر وسوريا وهى الأحداث التـــى بدأت بمد قومى كبير عام ١٩٥٨م وانتهت عام ١٩٦١م وكانت فى الأغلـــب تحقيقا عمليا للحلم العربى القومى الذى لايزال إلى الآن يراود المثقفين والمفكرين وإن كانت المحصلة النهائية فى صف اســتبقائه فى مرحلة الحلم الذى لابد أن يتحقق فى يوم من الأيام.

وبقراءة متأنية فى أوراق المسرح والصحافة نجد الكثير من التأثيرات الشامية فى حياة المصريين.

فهناك الكثير من المؤسسات الصحفية الكبرى التى بنيت على أكتاف مجموعة من محترفى المهنة من الشـــوام مثل ســـليم وبشارة تقلا اللذين أسسا مؤسسة الأهرام منذ أكثر من مائة وخمس وثلاثين عاما وجورجى زيدان صاحب البصمة الكبرى على مؤسسة دار الهلال الصحفية.

ومع دخول فن المسرح بثبات إلى أرض مصر جاء عدد من المسرحيين ومنهم ســـليم النقاش الذى أراد اســـتغلال نجاح أوبرا عايدة فترجمها وأعطاها إحساس العصر لتبدو مسرحية عربية ولينطلق بها من القاهرة ليحصد الشهرة والمال.

وكان نجـــاح النقاش هو الباب الذى دخل منه غيره من أبناء الشـــام مثل يوســـف خياط وسليمان الكردوى وجورج أبيض الذى قدم مسرحية «جريح بيروت» التى كتبها حافظ إبراهيم وقدمت على خشـــبة المسرح لأول مرة فى ١٩ مارس ١٩١٢م. وهو ما يعنى تعريب المســـرح المصرى. وهو قصة أخرى تضاف لإنجازات الشوام الثقافية فى مصر.

أبناء سلمان الفارسى فى مصر

يمثل الإيرانيـون فى مصـر حالة تسـتحق التوقف أمامهـا بالرصد والتحليل.

فعلـى غير حال الجاليات الأجنبية التى تأتى إلى البلاد وتذوب مع مرورالوقت يعتبر الإيرانيون أنفسهم شأنا خاصا.

فمجئ الفارسيين إلى مصر قد تم بشكل الصدمة الحضارية عندما غزا الفرس مصر وقضوا على فكرة الاستقلالية بها وكونوا أكبر غزو عسكرى منظم بعد غزو الهكسوس.

فصحيـح أن الآشـوريين والليبيـين وفصائل مـن المرتزقة الإغريق والرومـان قد حطواالرحـال إلى مصر إلا أن الغزو الفارسـى كان إيذانا بحالة استعمارية امتدت لزمن طويل.

فقـد كانت مصـر واحدة من أحـلام كورش مؤسـس الامبراطورية الفارسـية لمد نفوذه على العالم، إلا أن هـذا الحلم لم يكن ليتحقق على أرض الواقع بالصورة التى تمناها فى حياته. فقام ابنه قمبيز بعد موته بغـزو مصر ولكنه فوجئ بأنها كيان لا يمكـن أن يقبل الانضواء تحت أى كيان آخر.

فمعطيـات الحضارة المصرية الثابتة كانت تسـمح لها بالاسـتمرار برغم وطأة الاحتلال وفرض النفوذ.

فلم يتغير شـيء حتى بعد أن قام الفـرس بغزو مصر واحتلالها مرتـين، أولاهما كان على يد قمبيز واسـتمر لزمـن ليس بطويل من وجهـة الزمن الحضارية إذا ما قارناه باحتـلال آخر مثل الاحتلال البطلمى لمصر.

وثانيهمـا عقب هزيمة الروم التى ذكرها القرآن الكريم فى سـورة الروم وهى سـنوات ليسـت بالطويلة حيث لا تتعـدى العقد من الزمن وربما أقل من هذا.

إلا أن الرؤيـة الفارسـية لمصـر لم تقتصـر على هاتـين الواقعتين الاستعماريتين فهناك ذكرى جميلة يحتفظ بها الفرس فى مصر توقف عندها العالم الجليل حسـين مجيب المصرى والذى حكى عن قصة ربما لا يعرفها الكثير من المصريين وهى أن الصحابى الجليل سلمان الفارسى ابـن مدينـة أصفهـان الإيرانية والـذى كان أول رجل فارسـى يدخل الاسلام، والذى شـبهه الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه بلقمان الحكيم قد عاشت اثنتان من بناته فى بر مصر المحروسة.(٦)

كما أن الكثير من الرحالة أمثال ناصر خسـرو قد عاشـوا لفترة فى القاهرة وكتبوا عن معالمها وحضارتها الإسلامية.

أمـا قائمة العلمـاء المصريين من أصل فارسـى فهى تشـبه لائحة الشـرف حيث إن كل الأسماء التى تضمها تختلط فيها الدماء الفارسية بالفطرة والوسطية المصرية أمثال الإمام الليث بن سعد والفخر الفارسى والأصفهانى وغيرهم.

ومما يذكر أيضا أن مصر كانت موطنا آخر للصحافة الفارسية. ففى عام ١٣١٨هـ. كان فى مصر ثلاث صحف تصدر باللغة الفارسية. كما أشار السفير الإيرانى خسرو شاهى فى جريدة القاهرة وهى: «حكمت» و«ثريا» و«بروروش» وكلها صحف أسبوعية.

وبعدها ظهرت صحيفة «جهرة نما» بعد ثلاث سنوات من احتجاب «بروروش» كرابع صحيفة فارسية فى مصر وكانت تصدر مرة كل عشرة أيام ثم جاءت صحيفة «كمال» إثر اضطرابات شعبية فى مدينة تبريز وقد صدرت فى القاهرة بترحيب من الصحيفتين «حكمت» و«جهرة نما» والتى لم تصدر بعدها أى جريدة فارسية فى مصر إلى يومنا هذا.

وان كانت هذه ليست القصة كلها فبين السطور توجد العديد من القصص التى لا نعرفها.

واحدة منها ذكرتها مجلة «مختارات إيرانية» حيث شهدت القاهرة الكثير من الجدل الدينى والثقافى بين المصريين والإيرانيين. وأفضل مثال على هذا هى زيارة العلامة بهاء الدين العاملى لمصر ومباحثاته مع الشيخ البكرى فى الأزهر الشريف.

والشيخ بهاء الدين محمد بن العلامة عز الدين حسين العاملى المستشار الدينى لشاه عباس أعظم ملوك الدولة الصفوية، وقد وصفته المصادر بأنه جامع العلوم العقلية والنقلية. وقد ولد فى بعلبك عام ٩٥٣هـ. وقدم مع أبيه إلى إيران عام ٩٦٦هـ.

ودرس العلوم الدينية على يد والده ودرس العلوم العقلية على يد الشيخ عبد الله مدرس اليزدى، والطب والقانون على يد عماد الدين محمود الطبيب، واستقر به المقام فى أصفهان عاصمة الدولة وخلال ذلك ألف كتابه الجامع فى الفقه الجعفرى وقدمه باسم الشاه.(٧)

هذا الرجل زار مصر عام ١٦١٦م أى فى بدايات القرن السابع عشر ليؤلف كتابين يعتبران من أشهر كتبه وهما «الكشكول» و«المخلاة» اللذان طبعا بمطبعة بولاق مرتين.

ويؤكد المقال أن ما طبع لهذا العالم فى مصر أضعاف ما طبع له فى أى مكان آخر. وقد دخل مصر فى الأصل متنكرا فى زى درويش حتى لا يقصيه السلطان العثمانى الذى لم يكن على وفاق مع الشاه الصفوى. ومع هذا عرفه الشيخ البكرى الذى قال له: شممت منك رائحة الفضل فكتب الشيخ بهاء شعرا فى مصر:

يا مصر سقيا لك من جنة ... قطوفها يانعة دانية
ترابها كالتبر فى لطفه ... وماؤها كالفضة الصافية
وقد أخجل المسك نسيم لها ... وزهرها قد أرخص الغالية
دقيقة أصناف أوصافها ... ومالها فى حسنها ثانية
منذ أنخت الركب فى أرضها ... أنسيت أصحابى وأحبابيه
فيما حماها الله من روضة ... بهجتها كافية شافية
بها شفاء القلب أطيارها ... بنغمة القانون كالدارية.(٨)

والحقيقة أن هذه لأبيات تعتبر تأكيدا لتاريخ لم يتوقف عنده كثير من الباحثين، إذ إن الإيرانيين رغم تفرد ثقافتهم وترددهم على مصر وتسجيل مشاهداتهم من خلال التجارب الشخصية يمكن ألا يمثلوا تيارا له ثقل الوجود لتركى أو الشامى أو حتى الأرمنى، إلا أنه يجدر بنا التوقف عند هذه الحكايات الشخصية التى يمكن أن تحكى لنا عن جوانب أخرى من الحياة المصرية وخاصة فيما يتعلق بتاريخ استقرار بعض الأسر الإيرانية فى مصر على مر العصور.

فهناك موجة من التوطن فى مصر حدثت فى نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين وهو ما أوجد جالية إيرانية كبيرة جاءت فى نهاية حكم الأسرة القاجارية وبدايات حكم الأسرة البهلوية والثورة البيضاء أثناء حكم الشاه رضا بهلوى.

ومازالت بعض الأسر المصرية صاحبة الأصول الإيرانية تحمل ألقاب رشتى وخراسانى وأصفهانى وشيرازى.. ولايزال المصريون يذكرون أن آخر سنوات الأسرة المالكة فى مصر قد شهدت مصاهرة بين الأسرتين المالكتين فى مصر وإيران، حين تزوج شاه إيران الأخير محمد رضا بهلوى بالأميرة فوزية أخت الملك فاروق التى وصفها الإيرانيون بأنها تتفوق على أكثر الإيرانيات حضارة ومدنية.

فهذا الزواج الذى روجت له وسائل الإعلام كثيرا وقتها لم يكن إلا إعلانا عن التواصل والانفتاح بين المجتمعين المصرى والإيرانى.

يبـدو بالفعل أن ذلك الزمن كان عصرا ذهبيـا للتواصل. فكما يذكر مشـروع ذاكرة مصر المعاصرة إنه فى الثامن والعشـرين من نوفمبر عام ١٩٢٨م عقـدت حكومة محمد محمود باشـا الأولى معاهدة صداقة بين مصـر وإيران تقضى بالمسـاواة التامـة فى المعاملة بـين رعايا الدولتين وتمتعهم ومصالحهم بالحماية.

وقـد زال بهذه المعاهـدة كل ما يتمتع به الإيرانيـون فى مصر من امتيازات خاصة وكانت خطوة فى سبيل إلغاء الامتيازات.(٩)

وهكـذا لا يمكـن النظر إلى الإيرانيين على أنهـم برغم رغبتهم فى التفرد كانـوا عنصرا دخيلا على الحياة المصرية. وإن كانت حسـابات السياسة تفرض تيمة خاصة بين التباعد والتقارب.

فعندما كانت مصر فى السـتينيات تسعى إلى تأكيد مبادئ الثورة، كانـت إيران لها علاقتها الخاصة بالولايات المتحدة وإسـرائيل فى ظل حكم الشـاه، وهو مـا جعل الكثيرون يعتبرونها شـرطى الخليج الذى يأتمر بالأوامر الغربية وهو ما أوجد حساسيات فى التقارب معها أثناء حكم عبد الناصر.

إلا أن الأمـر قد تغير تماما أثناء حكم السـادات الذى كانت تربطه علاقـات صداقة جيدة بالشـاه تقوم علـى النظر فى الأمور السياسـية والعلاقـات الدوليـة من منظور مقـارب. وبعدها اختلفـت الرؤى بين البلديـن مرة أخـرى مع إعلان معاهـدة كامب ديفيد وانتصـار الثورة الإسلامية فى إيران فتغيرت دفة التقارب إلى ابتعاد معلن مرة أخرى.

وهكذا يمكن أن ننهى بعض ملاحظاتنا عن الجاليات الأجنبية التى سكنت مصر وإن كنا فى النهاية لابد أن نذكر ولو بشكل عابر الوجودين اليونانى والإيطالى فى بر مصر.

فهؤلاء الأوربيون مثلوا عطاء خاصا لمنطقة البحر المتوسط.. فالبحر واحد والطقس واحد والنظرة للحياة واحدة.

ولهذا لم يجد اليونانيون والإيطاليون والأروام مشكلة فى الانتقال للعيش فى الضفة الجنوبية للبحر وخاصة فى المدن الساحلية المصرية.

وقد كان تشجيع العديد من حكام الأسرة العلوية لوجودهم فى الأراضى المصرية بالإضافة إلى التقلبات والنكبات السياسية والاقتصادية التى شهدتها أوربا فى القرون الثلاثة الأخيرة أكبرحافز لهم للاستقرار على أرض مصر. وقد اختصوا أنفسهم كما هو الحال بالنسبة للأرمن ببعض المهن المدنية فأقاموا المقاهى ومحال الملابس وأضافوا إلى صناعة السينما المصرية.

وقد استوعب أهل اليونان درس عصر الإسكندرية مبكرا فعاشوا فى مصر فى كل العصور. وهذا أكثر ما يميزهم عن الأرمن الذين جاءوا بنفس الأفكار فيما بعد ليتمكنوا من الدخول إلى المجتمع المصرى.

أما الإيطاليون فقد كانت لهم هم الآخرون إضافتهم فكما يؤكد د/ يونان لبيب رزق فى ديوان الحياة المعاصرة أن الإذاعة اللاسلكية فى مصر أنشأها إيطالى كمحطة صغيرة للتليفون اللاسلكى فى ميدان سليمان باشا قرب جروبى.

ويعـود هذا بالطبع إلى ما كان يتمتع بـه الإيطاليون من وجود قوى فـى مصر، حتى إنهم كانوا يشـكلون أكبر جاليـة أجنبية أوربية بعد اليونانيين فى مصر.

وهكـذا تجتمع لدينا أجزاء الصـورة التى يمكن أن نرى من خلالها وجوها لأشـهر الجاليات الأجنبية التى كانت تسـكن بر مصر.. إلا أن الصـورة لا يمكن أن تقص علينا الحكاية التى كانت غالبا ما تنتهى إلى حكاية أخرى.

والغريـب أن كل أبطالها لم يكونوا مصريين مـن حال الأصل ..إلا أن مصر قد غيرت من مسـار حياتهم. فهى ليسـت مجرد علامة فارقة غيرت مجرى الأحـداث ولكنها أصل كل حكاياتهم. فلو كانوا عاشـوا فى أى مكان آخر لاختلف التاريخ وتغيرت الكثير من السياسـات التى شـهدها العالم. ولو كانوا بعيدين عن أهلهـا لما اجتمعت لدينا كل هذه التفاصيـل الجميلة التى ينبغـى أن نقرأها ونتوقـف عندها لكى نرى الصورة البهية لمصر التى ننسـاها فى لهاثنـا وراء لقمة العيش... فمن المفيد أن نقـرأ هذه القصص والحكايات... التـى ربما حدثت فى نفس شارع منزلك فى بر مصر المحروسة.

❑❑❑